

اعتمد على الطاولة برفقيه ، وقد تقبض وجهه واربدت ، وأراح رأسه الكئيب المتعب بين كفيه ، مثقلاً بالخواطر كزهرة ساحت على غصنها الظامء ، في تراها الجديد .
لم يكن الانذار مفاجئاً بالنسبة اليه ، فقد كان مستعداً له بسبق التوقع ، متوجساً منه ؛ ولكن أمد التسوية قد انقضى ولم يبق ثمة مجال للماطلة جديدة ، ووعد جديد ، فما العمل ؟!
لقد حلت اللحظة الحاسمة ، وليس بعد انقضاء مهلة الانذار سوى الحجز ، فالجربة إلى المحاكم ، وهو ما يعتبره فضيحة ومهانة !

صحيح ان الحاكم صديقه ، ولكن هذا ما يزيد المشككة تعقيداً ، فليس بجانبه متكأ حق ، وهو بعد ليس مستعداً لأن يكذب فيخلق باباً لتأجيل الدعوى ومظها والأخذ والرد بها ، ولقد يربحها في النهاية ، كما يربح كثير من الناس دعاوى باطلة ، ولكنه يخسر نفسه ، يخسر كرامته ، يخسر كل ما جاهد لفهمه والايان به من مثل وقيم !
ما العمل إذن ؟
ما الحل ؟
ودار رأسه ، واستسلم لخواطره ، فأرعى لها تجوب آفاق ماضيه ، مستعرضة ما أثاره هذا الانذار بين يديه :

بالتقسيط !

قصة جديدة بقلم نهاد الغادري

من فوارق لا مبرر لها فيما يعلم ولا منطق .
واضطرت الحاجة أن يكون انساناً يأكل بكد اليمين وعرق الجبين ، فهو يكدح ويشقى ليظفر من عمله الاغيب بثمان الخبز ، ثم انتهت به الى ان يصبح موظفاً صغيراً - بسيطاً ، براتب تافه هزيل ، يلتمس الكفئية من طريقه !!
ومضت به الحياة لا تعباً ، وتزیده ظلاماً ونكداً ، وعسفاً وبغياً ، ليزيدها عملاً وجهداً ، وكرهاً وحقدًا ، حتى أتعبته وما أتعبها ، وأشعبته وما أشعبها !

وكان على كل ما يحمل فوق كتفيه الصغيرتين الراهنتين من أثقال وأعباء ، فيه طيب وخير ، سريع الغضب ، سريع الرضى ، فما يكاد يعبس ويتجهم كلما أثاره حادث حتى يفىء الى شيء من بلادة الاحساس المكتسبة مع الزمن والألم فيرضى .
وكان كريماً ينفق ما في الجيب دوماً بالمثل ، دون ان يأتيه شيء من هذا الغيب الكرز ، المقبوض البد عنه في قسوة مصممة ! فكان بهذا كثير الاستعراض ، فاستنزف الدين موردة ، وأصاره الى ضنوكه ، وكان لا يبقى له في آخر كل شهر الا شوية بسيرة لا تسد ثقب حاجة !

ولم يكن له في حياته الشقية البائسة هذه ، من يعينه بكلمة ، أو يخفف عنه ببسمة . فلم تكن له ام ، أو كانت له ام فقد وجودها الحلو ، ولم يفقد ذكراها المشوبة بالمرارة . وكان كثيراً ما يحس بحاجة ملحة جارفة الى صدرها الحار ، يسند رأسه الكئيب اليه ، ويدها اللينة تمسح على وجهه بجنانها ورحمتها ، كلما أطبق عليه الألم ، وتكأه دته عقبات الدروب ، فتغلبه دمة حارة ، تصعد الى عينه مألحة محرقة .

وكان له أب مرزوء يستحق المراثية حقاً ، فلم يكن خيراً منه حظاً في الحياة ، بن لعله أسوأ ، وأشد كاوحاً ، ولعله ورث عنه فيما ورث هذا الحظ !

حتى الحظ يرثه الابناء عن الآباء ؟!
مضت به الحياة على هذا ، تزیده ويزيدها ، وتوسعه ويوسعها وتعبه وما يتعبها ، ويبدل الجهد كبيراً فوق طاقة شبابه الغريص ، حتى كان يوم تعرف فيه برفيق .

ولم يكن بينها رابطة سوى مشاهه من الحرمان ، فقد كان

نزول الى الحياة دون ان يتزود بسلاحها ، السلاح الذي تعترف به الدولة ، ويقره المجتمع ، فقد كان نظيف الرأس من كل سخافات المدرسة وتفاهاها ! ولم يكن يحمل شهادة عليا ، ولا سفلى ، فقد ترك الدراسة قبل ان ينهي المتوسط منها ، وانصرف الى الحياة يجاهد أثقالها ويحمل أعباءها بكاهل رجل ، وهو لما يقطع السابعة عشرة من سني حياته .

ولكن حظه من الثقافة كان وثيراً بالقياس إلى حملة الشهادات العليا منها ، ولم يكن يرى فيهم - دون اطراد لهذا الرأي فقد يشد عنه ذو موهبة - الا مجموعة من السخفاء فصلتهم المدرسة على قياس واحد ، أو أقيسة متشابهة ، كما يفصل الخياط بذل التعمد ، وقذفتهم الى الحياة ليفسدوها ، أو ليزيدوا من فسادها فان الفساد موجود في رأيه مع الحياة منذ وجدت الحياة !
وقد تفتحت نفسه بهذا الحظ الوافر المكتسب من الثقافة ، وعرف به حقه ، حق وجوده وآدميته ، فألمه ان يجد ما يجد

سوى صورة التمثال لم يتم المثال صنعه ولم يسو خلقه .
 ودار رأسه دوراناً سريعاً ، وأحس بشيء كالاعياء يؤود
 جفنيه ، فأطبقتها اطباقة من لا يريد ان يفتحها ابداً .
 وتدافعت موجات عكرة آتية من الحواطر على رأسه
 وحسه ، وانتشر ماضيه امام عينيه بكل ما فيه من ألم جاف
 خشن ، اشباحاً مروعة ، كمقبرة نبشت ألعابها مرة واحدة ،
 وانتصب سكانها هياكل عارية :

ترى ، لماذا وجد ، وما الغاية من وجوده ؟ ولماذا يولد
 احدنا على طريق سهلة معبدة مفروشة بالورد ، وآخر على طريق
 شاقة غاصة بالمعاطب ، ولم يقدم الاول ما يستحق عليه هذا
 الخير الكريم ، ولم يقترف الثاني ما يجزى عليه هذا الجزاء اللثيم ؟
 لماذا يفتح احدنا عينيه فاذا هو فوق القمة ، ويفتح الآخر
 عينيه فاذا هو في السفح ؛ ولم يعان الاول مشقة الصعود فيبقى ،
 ولم تزل بالثاني القدم فيهبط السفح عجزاً ؟!

لماذا تتاح لذلك فرص الحياة ، وتفتح له ابوابها واسعة
 عريضة ، وتمنع عن هذا كل فرصها ، وتضيق جميع ابوابها حتى
 تغدو ثقباً وشقوقاً وصيدة ؟!

لماذا هذا التفاوت ما دامت الحياة واحدة عند الاثنين ؟
 لماذا يتفقان في المبدأ والنهاية ، كلاهما يجنثه بطن الام ،
 ويعيبه بطن الارض ، ويختلفان فيما بينهما من حياة ، واحدهما
 يقتله الشعب ، وثانيهما يمزقه الجوع ؟

لماذا يرث بعضنا الثروة والجاه ، والحظ الأبلج كنهار
 أبلج ؛ ويرث بعضنا الآخر الذل والفقر ، والحظ الأسود
 كليل ضريب ؟

أئمة حكمة ؟ أئمة عدالة ؟ أئمة منطق ؟ . انه ان يكن شيء
 من هذا فان عقله أعجز من ان يدركه ، ولكن هذا لا يقدم
 في المسألة شيئاً عنده ولا يؤخر ، وما فائدته بما لا يفهم
 أو يعقل ؟!

واستطرد في خواطره ، وذهب الى أبعد فأبعد معها .
 وتكشفت له جوانب اخرى من المهزلة : فقد بدت له الحياة
 سباقاً ، ولكنه خال من أبسط قواعد السباق ، فلا تكافؤ بين
 المتسابقين ، وهم لا ينطلقون من نقطة واحدة ، بعضهم يوضع
 في اول الطريق ، وبعضهم في منتصفه ، وبعضهم الاخير في
 منتهاه على مقربة أو ملامسة من الهدف ! ولقد تتعقد المهزلة
 وتزيد في ضحكها الساخر ، وهزلها الجنون ، فبوضع ذلك

رفيق على جانب من ثراه حديث ورثه عن ابيه أيضاً ! ولكن
 علاقته به نشأت بما استقر في نفس صديقه الوارث من شعور
 بالتفاهة ، فقد عاش حياته محروماً مقترراً عليه في كل شيء ، بين
 أب قاس ، وجارية سيطرت عليه بعد وفاة امه فنزلت منزلتها
 وصارت سيدة البيت المطاعة واصبح لها من بعد خدم ! فكان
 رفيق بهذا ثرياً ولا يحمل نفسية طبقته ، أو لم يكن قد حملها بعد ،
 حين عرفه ، ومن هنا نشأت الرابطة بينها .

ودعاه رفيق مرة الى بيته ، فقد كانت معرفتها لا تتعدى
 حدود المقهى يلتقيان فيه على موعد ، وعلى غير موعد ، فلبى
 الدعوة ، وكان ذلك اليوم نقطة التحول في حياة البليدة .
 وليته لم يكن !

كان بيت رفيق كثير الفراش ، مترفع الرواء ، فلما عاد
 الى بيته في المساء ، ودخل غرفته الفقيرة ، راعه ان وجدها
 غريبة عنه ، جديدة عليه ! لقد فتحت عيناه فهو يراها الآن ،
 وكأنها قطعة من الشارع الأضلع ، مقفلة مجدبة ، ليس فيها ما
 يشعره انها عشه الذي يأوى اليه ويقضي اكثر ساعاته فيه .

وانحط كومة من الألم البليد على كرسي من الخشب ، يمد
 ويتخلع ، يفكر في حياته هذه التي كتبت عليه ان يعيشها
 حيواناً غليظاً خانساً ، مع فارق ، فان الحيوانات يجهد من يعلفه
 ويسقيه شعباً ورياً ، اما هو فعليه ان يكدح ويشقى في سبيل
 علقه وشرابه دون الشعب والري ، او بها في اقل شرط وأدنى
 مستوى .

وبدت له حياته الفقيرة ، المعدومة الفرص والامكانيات ،
 صورة ناقصة لم تتم ، وضع خطوطها رسام نزق لم يؤاته الصبر
 على اكملها ، فعبث بها ، وتركها خطوطاً تشير الى صورة وليست
 بصورة ، كما يشير هو الى انسان وليس بانسان !!

وتساءل : لماذا وجد في هذه الحياة ؟ انه يعيش لأن الموت
 ليس في مستطاعه أو ملك يديه ، ولو استطاعه او ملكه
 واندفعت امام عينيه فكرة وليدة مباغتة : انه يملك ان يموت !
 نعم الموت في مستطاعه .. فلينتحر !!

ولكنه سرعان ما انفض الفكرة نفضاً من رأسه ، فالانتحار
 جريمة ، وهو يريد الموت لا الانتحار . يريد الموت طبيعياً ،
 لا يحسه ولا يشعر به ! ثم لماذا ينتحر ؟ لماذا يموت ؟ لأنه فقير
 منكود ؟ ان نصف هؤلاء الناس المحيطين به ، هذا القطيع
 البشري ، بل تسعين في المئة منه ، مثله ، لا تربطهم بالحياة

المستدق المنحرف ، المصاب بالكساح في اول الطريق ، ويوضع ذلك الممتلىء صحة ، الفوار حيوية في منتهاه .. وتطلق صفارة الحكم معلنة بدء السباق أو بدء المهزلة التي تسمى سابقاً كما تسمى حياتها التي يعيشها ، حياة !

وعاد الى سؤاله الاول يلوكه من جديد ، وقد اثقله ألمه العاصف : لماذا وُجد في هذه الحياة ؟ انه لا يعيشها كما يجب ان يعيشها انسان ، ليس له فيها إلا غو النباتات ، كما تلقى بذرة القمح في الارض فتجنها إلى حصاد ، كذلك حياته ، وانه ليدكر جيداً بعد هذا انه خلق دون ان يسأل ، أو يكون له رأي في امر خلقه !

وبدا له في غمرة شعوره الجارف ، وثورته العارمة ، ان ليس امامه من متقد سوى العمل .. نعم فليعمل عملاً اضافياً ، فليكدح في سبيل الحصول على لقمة أدم وأنظف ، وبيت أجمل وأفضل .

ولكن كيف يستطيع العمل وهو يعيش في جو هذه الغرفة الضيق ، الشديد الوطأة ، المحتبس الانفاس ، هذه الغرفة المجذبة القراء ، كأرض صخرية حزن لا تثبت زرعاً ولا تبسم عن زهر . ليس امامه الا ان يملأها بشيء مما تملأ به الغرف .

كان متلهفماً على الاستقرار والاطمئنان ، ظامئاً الى الامن والراحة ، متوهماً ان الوسيلة الى ذلك سرير نوم ، ورايو ، ومنضدة ، وقليل من الكتب . فقد تحطم ظهره من يومسة الارض القاسية ، والرايو سيفتح له نافذة على العالم بكل ما فيه من علم وفن وأدب ، وحوادث وأخبار ، فيصرفه عن نفسه بعض الشيء .. ألا ما اشد حاجته الى من يصرفه عن نفسه .

ولكن من له بئسها جميعاً ؟ انه لا يملك سوى راتبه الهزيل ، لا يكاد يسكت به فماً شعبه خاطف موقوت ، وجوعه دائم ملح .

وهنا تمت المهزلة في نظره فصولاً . فليس مطلب فمه ولا معدته . دون مطلب فم ذلك المحشو بالاطياب ، ومعدته المتخومة بالكظة !

وطاردته الغصة ، وشعر بشيء كالذوار ، وبرأسه يكاد ينفجر ، واحس كمن ركبته الحمى فلها على جسده نفص وارعاد ؛ فقام وانطلق الى المقهى يغيب في ضجيجه ، فان ملازمة التفكير على هذا النحو في نفسه ، لن تنتهي به فيما يرى إلا الى الحبال . وجلس في المقهى مع لفيف من رفاقه يصرف نفسه في

الحديث ، عن التفكير بأمره في صمته الخيف . ولكن حظه النكد ، وطالعه الشؤم ، كانا أتبع له من كلب ودود ، وأعلق من علق منهوم !!

فقد كان الحديث عن الراديو !

ولمعت عيناه ببريق غريب حين انتهى الحديث إلى التقيط . ماذا ؟ واستدار يستوضح ويسأل : هل يستطيع الحصول على راديو واشياء اخرى بالتقيط ؟ ولم يمض عليه يومه ذلك حتى كان قد اشترى راديو ، وسريراً ومنضدة ، دفع من ثمنها جميعاً ٧٥ ليرة استلفها من زميل له ، وأحال البائع على نهاية كل شهر يدفع له فيها من راتبه ٣٠ ليرة . واستلف مبلغاً آخر اشترى به بعض الكتب ، ومبلغاً ثالثاً قضى به حاجات اخرى .

وفرك كفيه سروراً ، وشعر كمن يقف امام مروحة رقيقة الانفاس في يوم قانظ ذي لهب ؛ وبشيء من الارتياح يداخله ويشيع في جسده جميعاً ، وتحول سواد الدنيا في عينيه الى بياض ، وانفتحت له نوافذ الأمل العريض يطل منها على الجانب الأخضر من الحياة . اليوم هو مولده الحقيقي ، اما تلك الايام البليدة التي تقضت فليست من عمره في حساب ، وبدا له ماضيه كطخعة من طين قدر ، في ثوب أبيض تقي البياض ، هو مستقبل ايامه المشرقة .

ومضى الشهر فسدد قسماً يسيراً من دينه المقسط ، ولكنه استلف على الشهر التالي ! . وجاء شهر آخر فسدد قسماً أقل ، واعتذر للدائن ، ووعد بسداد ما تأخر مع قسط الشهر القادم . وجاء الشهر الثالث فلم يستطع الوفاء ! وبدأ يطالبه اصحاب الديون الاخرى ، زملائه ورفاقه ، وكان يعتذر لهذا وذلك ، ويحيل الواحد على الراتب في نهاية الشهر ، والثاني على مبلغ آخر يزعم ان سيجيئه ، والثالث على دين له في عنق أحد الناس .. وهكذا ! .

وعاد للدنيا سوادها ، ولكنه اليوم سواد مرهق ثقيل جثم على صدره كما يجثم كابوس مزعج .

وبدأ يتهرب ، وبرع في التهرب ، فهو يذهب الى عمله ويسعى في مناكبها كالمعتاد ، ولكنه لا يسلك إلا المناكب المتعرجة الملتوية ، تحاشياً للقاء اصحاب الديون . وكان كثير اليقظة ، كثير الانتباه ، ولكنه مع حرصه ويقظته كان لا بد له من ان يفاجأ بأحد الدائنين يبرز له ، كأن الارض قد انشقت عنه ، فيمسك به الدائن مطالباً ، وكعادته - كما

يده قبل أن يضغط زر الجرس . لا ، إنه لن يطلب . إنه لن يندل نفسه أكثر مما اضطر ففعل . وتحول عن البيت ، وابتعد في الطريق .

ولكن ماذا يعمل ؟ كيف يحل هذه المشكلة الآخذة بمخنته ؟ صحيح أن الحاجة ذل ، ولكن هل يعتبر الاعتماد على الأصدقاء ، ذلاً أيضاً ؟ واثن لم يكن الصديق لصديقه وقت عسره وشدته وضيقة فمتى يكون ؟ ولماذا الصداقة إذا لم تتقدمها التضحية ؟

واستراح بعض الشيء إلى هذه المناقشة ، ففعل عائداً ، وهو يقتلع خطاه المترددة الواجفة من الأرض اقتلاعاً ، ورفع يده فضغط زر الجرس هذه المرة بسرعة لئلا يعرض له ما ينتبه من جديد ، وفتح له الباب رفيق بنفسه ، فرحب به وحياء . . . وتبع هو مضيفه واجف القلب جزعه وهو يتساءل : ماذا يحدث لو اعتذر رفيق ؟ إنه يكون قد أذل نفسه ، ولم تحل مشكلته . ولكنه بجرأة المستئس قال وقد اقتعد كرسيه العريض الوثير : أتعلم ما جاء بي اليك يا رفيق ؟ قال رفيق وهو يبتسم ابتسامة مقتصدة : خير . قال : إنه القرش جلت قدرته . وروى له القصة كاملة ، وطلب منه أن ينجده بثلاثمائة ليرة . ولكنه لمح أو خيل اليه أنه قد لمح ، على وجه رفيق كدمة ووجوماً فعض شفته ندماً . كان من الخير أن لا يطلب .

وانفجرت شفتا رفيق عن سؤال : دين أليس كذلك ؟ فأجابه بغير وعي : طبعاً . وسأ كتب لك بها سنداً ، وأوفيكها بالتقسيم .

وقام رفيق بخطوات متناقلة متباطئة ، فأحضر أسناداً رسمية ، وأخرج المبلغ من خزانته الخاصة المتخمة برزم من فئة المائة ليرة وهو يقول بصوت خشن : لن آخذ فائدة منك عن المبلغ . ولكن أرجو أن تعتبر الصداقة شيئاً ، والدين شيئاً آخر .

ووقع صاحبنا السند ، وقبض المبلغ وهو مطرق واجم ما يحير لفظه ، ثم نهض شاكراً بصوت كان يخرج من أعماقه قطعاً من الألم الأسود .

★

إنه يستطيع الآن وفاء دينه للناس . ولكن .. يا للسخرية اللئيمة .. لقد داوى المرض بالمرض ودفع الدين بالدين !!

نهاد القادري

حلب

صارت عادته - كانت تحضره الكذبة المنقذة ، عفو الخاطر ووحى الساعة ، وبواتيه الخيال ، فهو ناس مرة ، ومسافراً كان مرة ، وواعد بالوفاء اليوم أو غداً على أبعد حد ، مرة . وكان يرفقها جميعاً بابتسامة وببضع كلمات اعتذار تسيل رقة ، وتجبل الدائن ، فيصبر على مضمض ظاهر وكره ملحوظ ، وهو لو استطاع لأنشب محالبه في عنقه .

وتأخر عن وفاء دينه المقسط أربعة أشهر ، وكان يحيله في كل شهر إلى الشهر الذي يليه ، ثم كان ما لا بد له ان يكون ، وجاءت اللحظة الحاسمة التي هو فيها . فقد أذره بسداد دينه في ثلاثة أيام ، مضى منها يومان وهو حائر ، ولم يبق امامه سوى يوم واحد . .

فما العمل ؟

لقد عاد إلى سؤاله الاول الذي تهرب منه . لا حيلة ولا مناص . لن تنقذه الذكريات أو الخيرة ، فليعمل ، فليواجه الواقع .

ولكن .. ما العمل ؟ ما العمل ؟ ما الحل ؟

ودار رأسه ، ومن جديد أحس بشيء كنفض الحمى ، وتمنى لو أن البطن الذي حمله كان قد نكله .

ليس امامه إلا ان يستدين . ولكن من يعطيه ؟ لم يترك صديقاً يعرفه ، ويعرف حقه عليه إلا واقترض منه ! لقد تورط بالدين وأصبح كمن ساخ في وحل عميق فهو يجهد للنجاة وكأنما هو يجهد للهلاك . أصبح كالغريق يغوص ويطفو ، وهو بشرق ويدفع . .

وفجأة ، وعفواً ، ذكر « رفيق » ، صديقه الوارث الطيب . ليس غيره لها . فليأخذ منه سداد دينه . لن يؤذيه مبلغ بسيط ينجده به . عجيبة كيف أنسيه هذه الفترة كلها .

وقام يقصد « رفيق » ، غير أنه بدأ وقد ذهب عنه لمع المفاجأة يفكر : كيف يطلب من رفيق ؟ إنه لموقف سيء حقاً . . ولكن لئن لم يطلب فلن يكون الموقف خيراً منه الآن بل هو أسوأ .

ومضى في طريقه . . وما إن وصل البيت وهمم بقرع الجرس حتى لمعت في ذهنه خاطرة جديدة : هل يعطيه رفيق ؟! ثم أن الحاجة مذلة ، فهل يقدم ؟ إن قرع أبواب الناس شيء هين ، ولكنه قد يغدو وصعود درج المشنقة أعز منه وأسهل . وأرعى